قصة قصيرة

الليل يتجمل

حسب الله يحيى

قف، قف لحظة واحدة، قف وراجع اللحظة التي أنت فيها.

قف، ليس عيباً أن يقف المرء ويراجع نفسه، العيب أن تسير وأنت تبصر أقدامك.

قف. الوقفة يقظة، واليقظة نور، وأنت تعشق النور.

قف.. الساعة تقف. حركة السير تتوقّف. النهار يتوقّف. الرغبة تتوقّف. المرض يتوقّف. الغضب يتوقّف.. قف.

لا أحد يوقف هذه العجالة المرضيّة التي تنتابك، لا أحد يرشدك إلى أن تتوقّف وتراجع نفسك عن زمن مضى، وزمن حاضر، وزمن لاحق.

أنت لست عجلة تدور حول محورها. لست آلة تعمل وفق إرادة الآخرين.. كما أنك لست دمية يلعب بها الصغار..

قف إذن. الوقفة مراجعة، والمراجعة في صالحك.

أنت الذي لا يقف.. تتجمّل كالليل.. تزهو بملابسك وأناقتك وعطرك وداخلك منخور، أجوف، عتيق.. كذلك عتمة الليل.. تتجمّل بالنجوم والقمر وسحر الأضواء، مع أن الليل طاغٍ يسع الأفق ويسوّد ويظلّ في سحنته..

لا تنطفىء الظلمة بالضوء، مثلما لا تزداد القبيحة بالأصباغ، ولا البيوت المنخورة بالأزهار. فما الذي ينبغي فعله لكي تقف؟

الجوع.. وقد شبعت حتى التخمة.

اللّذّة والعشق والسهرات.. مارستها مثلما كنت تتمنّى.

المجد والجاه والمال.. وقد امتلكتهم جميعاً.

كل شيء بين يديك صار سهلاً، ولم يعد يصعب عليك حتى أن تتذكّر الأمس.. لتتقدّم إلى أمام تشقّ غبار الزمن.

قويّ بمالك وجدران بيتك الذهبيّ، قوي تستطيع أن تدعي هذا مع أن عالمك الداخلي كسول، ميت.. إذ لا تعرف إلا من شابهك.. كل من جمّل ليله.. وجمال الليالي زائف كما تعلم.

قف.. وتذكر المعادلة الصعبة بين الأمس واليوم.. بين أن تشمّ رائحة برتقالة وتلمس قشر موز، وتلمس رغيف خبز حارًّا.. وبين أن تطغى.. حتى تنسى جذورك.. مع أن في قدميك شيئاً من فعل ذاك الماضي.. أقدام حافية جافة وأصابع خشنة وجبين أحرقته الشمس.. وبصمات العيون والشفاه تهتف وتصرخ بك.. قف..

أنت لا تبصر ما تفعل. أنت لا يعنيك من أمر الآخرين أي شيء.. المهمّ أنت حسب.

أنت وليفتتن العالم باللعنة ﴿﴾، وليتمزّق النهار، ولتبدّد ألوان السماء.

أنت من يرشد نفسه إلى الهناء، وينصح ذاته بالعطاء، ويجنّب نفسه أمراض الفقراء. الفقراء أولئك الذين تنفّسوا الحرّية ذات يوم.. وقالوا لا للعبودية.

رجال جوف أولئك الذين كفروا بأمنهم وسلامهم.. واختاروا درب الشوك وكنت معهم.. رهن إشارتهم، تتقدّم بالتضحية والفداء والقبول والرغبة الأكيدة في أن تكون شجاعاً.. يوم كنت طالباً في الثانوية، مملوءاً بالحماسة وعشق الحياة الحرة. الآن.. ترصدهم واحداً واحداً..

الآن.. تمارس اللعبة المجيدة.. وأصبحت ناجحاً في أن تبوح بالأشياء وتعترف بكل ما صحّ وما لم يصحّ، وقبضت الأجر مشكوراً..

الآن.. تقوم نعم.. لمن كنت تقول لهم بكل جسارة: لا.

وبتّ تعقد الآمال على أن تكون شيئاً، بعد أن خسرت في الماضي كل شيء، ولم يحقّق لكل أحد أيّ شيء.. فلماذا لا تكون الأشياء كلها ملك يديك؟

يداك تتّسعان للأشياء.. والأشياء حميمة بين يديك.. يا أنت.. يا.. أيها الصديق البتن، يا أيّها الزوج الخؤون، يا أيّها القريب الذي بات غريباً عن جنسه.. أيّها الأليف مع محورك وآليتك وأرباحك.. أيّها اللاإنسان.

تجلس مع نخبة.. النخبة ترتبط بمصلحة مشتركة.. كلّ لقاء يقود إلى صفقة جديدة من الأرباح التجارية والمقاولات العامة.. غشّ متبادل، وخدع متبادلة.. والسكوت أسلم للجانبين..

مع أنك كنت تحدّث أصدقاءك عن الخير والنقاء والحرية.. حتى باتت هذه الكلمات عدماً في قاموسك اللغوي، ولم يعد لها أهمية في سيرة حياتك السوداء.. التي تجمّلها سيارة فارهة وقصر شاهق ووجه معطر.. هو الليل يتجمّل في عينيك إذن!

وزوجتك.. التي قتلت فيها الأمل بعد أن كنت تحدّثها عن الشعر وفيروز والأزهار. ويقطر لسانك بالكلمات الجميلة.. حتى استسلمت إليك وباتت بين يديك حمامة، ووردة.. حتى إذا كانت الحمامة البيضاء بين أصابعك، بادرت وضغطت على أنفاسها، وكسرت كل أمنياتها.. وجعلت من أوراق الوردة هباء منثوراً.

ووالدك.. خصمك.. يشدّ وثاقك وترفض حتى تستسلم للصمت.

ووالدتك.. حلّة قديمة، بقعة آسنة لا يشرّفك النظر إليها.

ليلك وحده هو الأجمل بين الأشياء كلها.. ليل ذاكرتك المنخورة التي باعت كل الماضي بثمن بخس، وارتضت أن تستسلم لواقع مغرٍ..

أنت فعلت كل هذا.. ودارت بك دورة الزمن فلم تعد تعرف أحداً سوى نفسك.. فاهنأ بها.. وكن رفيقاً لها.. كن أنت نفسك، جديراً بنفسك.

استخرج من تاريخ حياتك كل الماضي، وصِلِ اليوم بالغد.. فلا شيء أقرب منك إليك من هذه الدعوة في أن تختار عرشك وتتوّج نفسك على الآخرين..

ليتّهمك البعض شتى التهم.. المهم أنك مقتنع فيما تفعل، ولكي يكون لك رفيقاً لا تلمس عنده الأمان لأحد سوى ذاتك التي لم تعد حرّة؛ إنما هي مقيّدة بالسلوك الذي تمارسه، وبالرغبة التي تؤكّدها، والمسار الذي تختطّه لنفسك.

أنت تتجمَّل بالرأفة والمعروف والمحبّة.. كالليل يخدعك بريق ألوانه وضياء نجومه.. مع أنه أظلم وقلبك ظلام، ورأسك محشوّ بالظلمة نحو الآخرين.

هذه طبيعة جديدة فيك، اكتسبتها حين ذقت طعم الغنى والأرباح غير المعقولة.. التي أخذت تستلّها من شفاه الفقراء الذين كنت تدافع عن حقوقهم.

لقد كفرت بالماضي كله.. وآمنت بالحاضر وليد نعمتك

فاهناً . . يا أنت . . يا أيّها الليل الذي يتجمّل بالأنس والسحر والليالي اللطاف والنسائم العذبة .

وتسألني . . لماذا أخاطبك بكل هذا الكلام . . ماذا استهدف منه، مع أنني كنت الصديق الحميم إليك، ولم يكن بوسعك أن تطرد وجهي من عينيك مادامت في عينيّ . .

لن تطرد وجهي . . ذلك أنني حقيقتك الداخلية، ذلك الخزين الخبيء في داخل أعمق أعماقك . . ذلك الآخر المنسيّ تماماً، ذلك الخيط الرفيع . . الرفيع من نورك الذي يركن ساكناً مادام صوت الحاضر يعلو ويرتفع ويأخذ المساحة الأوسع في سلّم حياتك . . أنت الحاضر في دخائل نفسك . . حدّق في النجمة الأولى والأخيرة التي تكاد تنطفيء في داخلك . . أنت البعيد، البعيد إلى ما ليس فيك . . القريب، القريب من الذي فيك . . أنت الذي لا تخلو من طيبة القلب . . أنت . . أنت . . ألا تأخذك الصحوة في يوم ما، في لحظة ما . . قف . . من النباهة أن تقف وتعيد إلى حياتك مجدك الآفل . . أنت الذي يستعيد حاضره حسب، ولا ينشد إلى الماضي إلا وفق هذا الجرح المضيء في أعماقك . .

أنت حمامة أضاعت بيت الألفة . النبتة التي ودعت أرضها . الكتاب الذي غادر صاحبه، أنت الباب الذي أضاع مفتاحه، القلم الذي جفّ حبره، و . . والرغيف الذي تنكّر لنار التنّور التي جعلت الشهية فيه تفوح بالشبع . . أنت من استبدل دمه وسماءه وانسلخ من جلده وارتدى جلود الآخرين . . أنت الذي لم يعد يعرف هويته ولا عرق جسمه ولا حواسه . . أنت من استسلم لجمال مؤقت وارتضاه أن يكون الحياة كلها . .

قف . . أما رأيت شجرة تذبل، أما قرأت أن ما بناه الإنسان عبر مسار التاريخ بدأ يندثر ويرمّم وينـدثر . . ويختلف في أصله المؤرّخون، ألم يسقط هولاكو وهتلر ونيرون . . قف . . أنت لست خالداً . . أنت لا تمتّ إلى الأزل بصلة .

الخلود وحده للنبل وحده، للعشق الوحيد، للذاكرة الأصيلة، والمجد لبريق عيون ترى الأشياء بصدق، وتتعامل مع العالم بالحسنى .

قف . . أتحسبني أغار من نجاحك وتفوقك وأتعامل معك بهذه اللغة، أتحسبني أطمح إلى حياة مماثلة . . صدّقني لا . . فالنجاح ليس أن تفنى ليجوع الآخرون، ليس أن تسعد ليشقى بقية الناس . . والتفوّق لا يكون على حساب الآخرين .

ـ وماذا تريد إذن؟

ـ لا أريد . . أنت من ينبغي أن يريد . . دائماً أنت الذي يطمح بالكثير، وأنا لا أطمح إلا بأقل من القليل من نقاء ماضيك وعزّتك وخيرك . . فلماذا تصدّ عن حقيقتك، لماذا تستبدل وجه نهارك بليل غضبك من الماضي، جاعلاً منه زائلاً، مع أنه وشمك الأصيل ولا ارتداد لك عنه . . ولا خلاص لك منه .

ارسم جبهة محبتك على الماضي ولا تستأصل جذورك، فالذي تستأصل جذوره يموت . . وأنت لا تريد أن تموت ولا يريد أحد لك أن تموت هكذا في ليل بهيم تتجمّل فيه .

المهم أن تقف وتراجع خطواتك . . وأن تعرف موقعها . . أن تستردّ ثقة الناس بك . . أن تكون النهار كله . . أن تحيا العشق الأجمل وأنت في صحوة الضوء لا في ظلمة الطغيان والألق الزائف . .

قف . . فليل يتجمّل . . ليل زائف . وخطوة في طريق ضالّ تقودك إلى الإدانة وإلى أن تكون في موقع ليل قبيح يتجمّل . . قف . . فهذا أنت وهذا ماضيك وهذا حجمك وهذا أنت حسب .

بغداد